

مستقبل الإمبراطورية الأمريكية

مفهوم الهيمنة

د. محمد عبد العزيز ربيع

تقول نظرية الهيمنة، تظهر بين الحين والآخر دولة عظيمة أو إمبراطورية كبيرة تحاول، ويكون من واجبها أن تحاول أخذ زمام المبادرة وإقامة نظام عالمي جديد تجلس على قمته وتقوم بإدارته، وذلك من أجل تنظيم العلاقات الدولية، وضمان استتباب الأمن والاستقرار في العالم، وتنشيط المبادلات التجارية بين مختلف الدول والشعوب. وتشير كتب التاريخ إلى أن أوروبا استطاعت بدءاً من القرن الخامس عشر مد نفوذها إلى مناطق مختلفة من العالم، إلا أنها لم تستطع السيطرة على كل البلاد التي كانت تتطلع إلى السيطرة عليها، وذلك لأن دولها الرئيسية لم تملك المعدات العسكرية أو المعرفة العلمية والأدوات التكنولوجية المطلوبة لتحقيق أهدافها. لكن قبل أن ينتهي ذلك القرن كان البحارة الأوروبيون والرحالة الأوائل قد زاروا معظم بقاع العالم، وتعرفوا على ثقافات شعوبها، ورصدوا خيراتها القابلة للاستغلال. أما فيما يتعلق بالإمبراطورية، فنقول نظرية الهيمنة أنها عبارة عن دولة كبيرة ذات طموحات واسعة النطاق، وتوجهات للسيطرة على الغير من شعوب ودول بهدف حماية وتعزيز "مصالحها الوطنية"، وفرض "نظام عالمي" يعكس رؤيتها للعلاقات الدولية، ويحقق الأمن والاستقرار في المناطق التي تهيمن عليها وبين الشعوب التي تخضع لسيطرتها.

اتجهت دول أوروبا الغربية مع بدء حملاتها الاستعمارية إلى الإدعاء بأن هدفها الأساسي هو تحضير الشعوب المتخلفة ونشر المسيحية فيها. إلا أن مجرد اعتبار شعوب البلاد المستعمرة شعوباً متخلفة كان في حد ذاته حكماً أوروبياً على تلك الشعوب بأنها لا تستحق من الحرية ما تستحقه الشعوب الأوروبية، ولا تملك من العقلانية والرشد ما تملكه الشعوب المسيحية. وبينما ركزت إسبانيا على نشر الديانة الكاثوليكية ونهب مناجم الذهب والفضة التي اكتشفتها في أمريكا اللاتينية، ركزت البرتغال على السيطرة على طرق الملاحة البحرية والتكتم على أسرار طرق وتكنولوجيا البحار عبر المحيطات. أما هولنده فقد ركزت على التجارة، خاصة تجارة التوابل، وإقامة الموانئ وشركات الاستثمار والتجارة، وتأسيس بيوت مال كبيرة لتمويل النشاطات الاستثمارية والتبادلات التجارية بين أوروبا وما تسيطر عليه من مستعمرات. لذلك شهد القرنين السادس عشر والسابع عشر، خاصة بعد استكشاف معالم العالم الجديد

والتعرف على خياراته، صراعا حادا بين دول أوروبا الرئيسية، شمل النواحي التجارية والعسكرية، وهو صراع اشتد كثيرا بعد دخول بريطانيا وفرنسة حلبة التنافس. ولما كان الهدف الأول للنزاع هو السيطرة على البحار وطرق التجارة والموارد الطبيعية ومصادر الذهب والفضة، فإن التحالفات العسكرية والصفقات التجارية كانت تتم دوما على حساب الشعوب المُستعمرة. وهذا يعني أن الإمبراطورية تضع مصالحها دوما فوق مصالح الغير من الشعوب والدول، وأنها تعتبر مصالحها وفلسفة حياتها المرجع الوحيد لتشكيل نظام عالمي يقوم بإدارة الشؤون الدولية. لذلك نلاحظ أن كل دولة مارست الاستعمار وكان لها تطلعات إمبراطورية اتجهت إلى التقليل من شأن الشعوب الأخرى، وعدم احترام ثقافتهم التقليدية ومصالحهم الوطنية، والتنصرف بعقلية استعلائية استعمارية اتصفت بالعنصرية والجهل، نتج عنها الاستهانة بعقلانية الآخرين، والاستهزاء بتاريخهم وتراثهم، والاعتداء على حقوقهم.

بالرغم من أن القوة العسكرية وتكنولوجيا الملاحة كانت أهم أدوات الهيمنة في بداية عصر النهضة، إلا أن أوروبا اتجهت إلى ملئ الكثير من المناطق المستعمرة غير المأهولة بالسكان وقليلة السكان بأعداد كبيرة من المستوطنين الأجانب، خاصة في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأستراليا، مما جعل المستوطنين الأوروبيون يصبحون امتدادا طبيعيا لشعوب وثقافات البلاد التي هاجروا منها، وأدوات من أدوات الهيمنة على الغير واستغلالهم. وفي أعقاب قيام هولنده ببناء ميناء امستردام الجديد أصبح بمقدورها احتكار معظم التجارة القادمة من المستعمرات الأوروبية في آسيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، ومكنتها على الرغم من صغر حجم سكانها من تأسيس أول نظام عالمي والسيطرة عليه وتسخيرها لخدمة مآربها، وهو نظام قام أساسا على التجارة والمال ومن اجلهما. ولذا تعتبر هولنده أول دولة نجحت في التحول إلى قوة مهيمنة وقامت بتشيد نظام عالمي في القرن الثامن عشر سخرته لخدمة أهدافها الوطنية. إلا أن الهيمنة الهولندية لم تدم طويلا ولم تكن هيمنة كاملة أو شاملة، وذلك لأن هولنده لم تملك القوة العسكرية أو البوارج البحرية الكافية لحماية مصالحها والدفاع عن مستعمراتها، ولأن البرتغال وإسبانيا سارعتا إلى التنافس معها.

أما بريطانيا فقد اتجهت بعد دخول ساحة التنافس إلى التعاون مع هولنده على أمل الحصول على حصة الأسد من التجارة الدولية، إلا أن فشلها في تحقيق ما كانت تسعى إليه دفعها لشن حرب على هولنده والبدء في تأسيس شركات استثمارية وتجارية كبيرة، وإقامة بيوت مالية ومؤسسات ائتمانية على درجة عالية من الكفاءة، وبناء أكبر اسطول عسكري وتجاري في العالم. ولقد تسبب ذلك في تراجع مكانة هولنده الدولية بدءا من منتصف القرن الثامن عشر، مما ساعد بريطانيا على أخذ مكانتها وتأسيس إمبراطورية

مترامية الاطراف دامت حوالي 150 عاما. ومن أجل السيطرة على الشعوب التي استعمرتها وعملت على استغلالها واتجهت إلى نهب ثرواتها، قامت الإمبراطورية البريطانية باتباع سياسة "فرق تسد" لتجزئة الشعوب المُستعمرة وزرع الخلافات في صفوفها، والعمل على تكريس التخلف الاقتصادي والعلمي والثقافي والتجزئة السياسية على كل المناطق التي استعمرتها، مستفيدة مما كان لديها من تكنولوجيا سلاح متطورة وحنكة سياسية وارادة قوية. وفي سعيها لتحقيق أهدافها التجارية والسياسية، لم تتورع بريطانيا عن استخدام كل الوسائل المتاحة، بغض النظر عن شرعيتها وأخلاقياتها. ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا المجال، قيام بريطانيا بنشر تعاطي الافيون في الصين على أكبر نطاق ممكن، والعمل على تدمير صناعة القطن في الهند من اجل احتكار شركاتها لتلك الصناعة، وتطوير زراعة القطن في مصر حين اصبح من الصعب التحكم في عمليات انتاجه وتصديره من أمريكا. ومن خلال السيطرة على جزء كبير من العالم لم تكن الشمس تغيب عنه كليا، استطاعت بريطانيا اقامة نظام عالمي جديد جلست على قمته وسخرته لخدمة أهدافها وحماية مصالحها وإلحاق أضرار بالغة بكل الشعوب والبلاد التي استعمرتها، كان من بينها تفتيت شعوب مسالمة وتحويلها إلى قبائل متحاربة، وتجزئة بلاد وأمم إلى دويلات صغيرة متناحرة، وخلق كيانات سياسية بحاجة لحماية خارجية دائمة.

لكن الامبراطورية البريطانية بدأت تتراجع تدريجيا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وانتهت مع نهاية الحرب العالمية الأولى و بروز الولايات المتحدة الأمريكية كلاعب عالمي رئيسي ذا قوة عسكرية واقتصادية كبيرة متنامية. وفي ضوء سقوط الإمبراطورية العثمانية والهنجارية المنسوية وتراجع قوة ونفوذ كل من بريطانيا وفرنسة، ظنت أمريكا أن من واجبها أخذ زمام المبادرة والعمل على إقامة نظام عالمي جديد يخضع لهيمنتها ويخدم مصالحها. ولذلك اتجهت إلى التصرف كإمبراطورية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة، والتوسع اقتصاديا وسياسيا على حساب الغير من دول وشعوب العالم، مع التركيز على هدفي تكريس الامر الواقع والحفاظ على الاستقرار. لكن الحفاظ على الأمر الواقع كان يعني الاستيلاء على التركة الاستعمارية التي خلفتها بريطانيا وفرنسة في إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، والقبول بالجرائم التي ارتكبتها تلك الدول بحق الغير من شعوب فقيرة ودول مستضعفة. ومع تبلور الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى في أعقاب الحرب العالمية الثانية اتجهت أمريكا إلى إحكام سيطرتها على دول المعسكر الغربي وعلى الدول الإفريقية والآسيوية والشرق أوسطية التي خضعت في السابق للهيمنة الأوروبية، والعمل في الوقت ذاته على احتواء نفوذ الاتحاد السوفيتي من الناحيتين السياسية والعسكرية. وهذا فرض بدوره نظاما عالميا جديدا قام على توازن القوى بين أمريكا والاتحاد السوفيتي، ودفع كل دولة

إلى إحكام هيمنتها على الدول التابعة لها من ناحية، والعمل على إضعاف هيمنة ونفوذ القوة العظمى الأخرى.

في ضوء تراجع القوة السوفييتية في أواسط الثمانينات بعد فشل قواتها العسكرية في كسب الحرب في أفغانستان، ونجاح أمريكا في المقابل في تجنيد ودعم القوى التي قاتلت السوفييت وقامت بهزمتهم، وجدت أمريكا أن الظروف الدولية أصبحت مواتية للقيام بدور إمبراطوري مهيم. وعلى الرغم من قيام الرئيس ريجان بدور نشط في مد سيطرة بلاده على العديد من دول العالم وإحكام هيمنتها على المنظمات والمؤسسات الدولية، إلا أن النخبة السياسية والاقتصادية والثقافية الحاكمة في أمريكا لم تعترف بأن بلادها تتصرف كإمبراطورية إلا بعد أن تسلم الرئيس بوش الابن مقاليد الحكم في عام 2001. وتقول نظرية الهيمنة إن تراجع مكانة وهيبة الدولة المهيمنة يبدأ بعد أن تتوسع خارجيا وتمت نفوذها لمناطق عدة من العالم، وذلك لأن التوسع يتسبب في زيادة التزاماتها المالية والعسكرية، ويقود إلى تضرع اقتصادها، مما يؤدي إلى تراجع إرادة الغزو والهيمنة لدى النخبة المسيطرة على الحكم فيها. وهذا من شأنه أن يضعف ثقة الغير في قدراتها على القيادة وشن الحروب وكسبها، وبالتالي احترامه لها وخوفه منها. فهل دخلت الامبراطورية الأمريكية مرحلة التراجع؟ وما هي أهم الأسباب التي ساهمت أو تساهم في ذلك؟ وكيف يمكن أن يكون عليه الحال من بعدها؟ ثلاثة أسئلة هامة ومصيرية بالنسبة للعالم، ستحاول هذه الدراسة المتواضعة الإجابة عليها.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com